معاينة لحادث

جرت لوشوتس

ترجمة: هبة شريف

كيف لي أن أعرف. كيف يمكن أن أعرف. (...) لم يحدث الأمر بهذا الشكل لأني أحتاج إلى أن يحدث بهذا الشكل، أنا فقط لن أستطيع التعرف عليه إذا حدث بشكل آخر.

(أوفه جونسون: تسعون عامًا اليوم)

ا

أربع ثوان

1

«هذا ليس زمنك.»
قالت "إبِيس" إن هذا ليس زمني عندما شرعت في كتابة مخلص المقال، انحنت من فوق الفراش وحاولت التقاط البلوفر الذي انزلق من فوق المقعد على الأرض، اعتدلت جالسة وسحبت البلوفر على رأسها. كانت ملابسها موزعة في الحجرة كلها، بنطلونها مجعد وملقى على الأرض والسترة معلقة فوق المقعد والحذاء مقلوب إلى جانب الباب. جمعت كل شيء وذهبت إلى الحمام، ثم سمعتُ بعد قليل صوت خطواتها على السلم وصوت إغلاق الباب.
مساءٌ باكر، لم يكن الظلام قد حل بعد، وبعض النور يضيء في الفناء. كان لون السماء على الناحية الأخرى من المنتزه أحمر داكنًا وتتلألأ خيوط من الأشعة من خلال الأشجار. مصراع نافذة الشرفة مفتوح... خرجتُ إلى الشرفة ورأيت "إبِيس" تسير على الطريق المحاذي للنهر. مرت بي وهي في طريقها إلى موعد في وسط المدينة في زيارة خاطفة (كما تطلق عليها)، اندفعت إلى داخل شقتي بدون أن تلقي لي بالًا. دخلتُ إلى الحجرة ذات الشرفة فوجدتها تقف عند المكتب. انحنت فوق الأوراق المتناثرة على المكتب؛ التقارير والملفات والمقالات والصور؛ ثم قالت:
«هذا ليس زمنك.»
أعادت الجملة ونحن راقدين في الفراش. "واي" أو "ايبس" أو "إبِيبسيلون"..إنه اختصار لاسم يدين بالفضل في نشأته إلى كونها متزوجة وسعيدة في زواجها ولا تسمح بأن يعرف زوجها بأي حال من الأحوال أنها تأتي إلى في شقتي لتخونه...قالت عندما تحدثنا ذات مرة عن هذا الأمر إن معرفته بخيانتها تعني موته، وبدت حزينة حتى أني لم أعرف إذا كانت تعني ما قالته فعلًا أم إنها كانت مجرد مقولة بين الجد والهزل كعادتها...تعني موته...إلا أنها لا تستطيع التوقف عن خيانته فتأتي كلما سنحت لها الفرصة إلى شقتي أو تأتي برجال آخرين إلى الشقة إذا عرفت أني بالخارج.
استدارت قبل أن تختفي خلف الشجيرات ورفعت يدها فلوحتُ لها بدوري.

هذا ليس زمني، ولكنه زمن قريب من زمني، ولهذا يتراءى لي على الفور وأنا أقرأ الملفات (بخلاف إبِيس" الأصغر سنًا) الطريق الرملي الذي يمر أمام بيت "ليزا" ويلتف حول المرج، أو تتراءى لي السيارات وهي تطقطق في أثناء سيرها في الشوارع التي تكاد تكون في هذا الوقت من بعد الظهيرة خالية، أو أرى عربات تجرها الخيول التي لم يكن استخدامها قد توقف آنذاك تمامًا بعد، أسمع صرير العجلات الحديدية وأشعر برائحة أكوام القش الدافئة المرصوصة بعضها فوق بعضًا والتي تكاد تخرج من حافة العربة، أو أشم رائحة القناة السوداء. أقف فوق الجسر وأنظر إلى القاطرات المحملة بالفحم والرمل والحصى والتي تسحب خلفها زورقًا صغيرًا وأسمع صوت صفارات التحذير وقرع الجرس.
يظهر كل شيء من جديد: الخراطيش التي عُثر عليها في نفق مصانع الذخيرة تحت الأرض فوق قضبان السكة الحديد المحلية؛ الرجال الهزيلون في بنطلونات ثنوا أرجلها وثبتوها تحت جواربهم بدبوس؛ طقطقة العكازات وهي تخبط الرصيف...الشعور بالفرحة في أثناء قيادة

الدراجات الهوائية في الصيف والخوف من الظلام في الشتاء؛ الرعب الليلي. الخوف من الضياع.
ألم ترفعني في الهواء وسط الزحام والفوضى عند رصيف القطار؟ ألم تناولني لأناس غرباء مدوا أيديهم إليها من نافذة القطار؟ ألم تفعل ذلك لأنه كان من الأسهل أن تنجح في التدافع والدخول من باب المقطورة بدوني؟ ألم ألمحها وهي تغوص وسط تماوج الرؤوس والأكتاف حتى أني اعتقدت أنها لم تلحق بالقطار الذي بدا يترجرج لينطلق؟ وكلما ازدادت سرعة القطار كلما أدركت أني قد انتزعتُ منها وابتعدتُ عنها؟ ألم يقفز قلبي فرحًا عندما رايتها تظهر من جديد عند نهاية الممر ولمحتها وهي تجاهد لتمر وسط الناس بفظاظة غير معهودة فيها كانت فقط بسبب خوفها علي؟ هل كان القطار متجهًا إلى "ماجديبورج"؟ أم إلى برلين؟ هل كنا في طريقنا إلى الموهوبين؟ أم إلى الخالة ذات الذراع الجلدية؟
تأتي الصور من بعيد لتصبح جزءًا من مخزون الخوف؛ جزءًا من الفزع فاغر الفم الذي يضربني بالليل...ها هي الأسطوانة السوداء الرطبة على الدوام الخارجة من الظلام، أسطوانة مرجل القطار، ها هي العجلات العالية بطول الرجال والتي تُدفع إلى الأمام بواسطة قضيبين والكشافات التي تخترق عواميد الدخان وبخار الماء؛ الأزيز والصرير والخبطات؛ الشرارات المتطايرة وصوت صرير الحديد؛ أصوات الطقطقة والقرقعة؛ أصوات خبط العجلات التي تظل تصاحبني بعد ذلك حتى في نومي.

ثم المكان أيضًا: محطة القطار، تلك المحطة...كم من الصور التقطتها لها كلما رأيتها، صور خزنتها بعد ذلك في أدراج وصناديق وعلب كرتون، صور كثيرة يمكن أن تزين العديد من المعارض. كنت أسحب تلقائيًا آلة التصوير كلما ذهبتُ إلى هناك في بداية الصيف وظهر أمامي المبنى الذي حجبت نصفه أشجار الكستناء المزهرة؛ فألتقط صورتين أو ثلاثة. أفعل ذلك في الخريف أيضًا عندما تتدلى أوراق الشجر المنقطة باللون البني من الأغصان، وفي الشتاء وأيضًا في أثناء المطر أو عند هطول الثلج. لم أكن ألتقط الصور فقط من الفناء الأمامي أو من ذلك الجزء من الشارع الذي تسوره الأشجار، كنت ألتقطها أيضًا وأنا واقف على رصيف محطة القطار، أو وأنا داخل القطار السريع الذي لا يتوقف في هذه المحطة. كنت أرفع دائمًا آلة التصوير (بالرغم من أن التصوير محظور ويعرضني للعقوبة)، وأضغط على زر التصوير...حتى عندما كنت أقول لنفسي أنه قد مر وقت طويل على ذلك وأني لم أعد بحاجة إلى ذلك، لكني لم أكن أستطيع مقاومة الإغراء، كنت بالأحرى مجبرًا على ذلك، الإجبار كان هو الشعور المسيطر علي؛ فالمكان على الأقل سوف يبقى إذا اختفى البشر الذين ينتمون إليه، وإذا لم يستطع المكان البقاء ، فسوف تبقى الذكرى عن شكله، إنه المسرح الذي تحرك فوقه هؤلاء الناس؛ فهذا المبنى كان في معظم الأحيان آخر شيء يشاهدونه في المدينة وهم يغادرونها. كان هذا المبنى يعج بأكمله (في طفولتي) بالنشاط، ثم أصبح اليوم مهجورًا، بيت مكعب الشكل ومطلي لسبب غير مفهوم باللون الأحمر القاني ثم أصبح مع الوقت داكن اللون حتى أنه يبدو اليوم أسود. سطحه منبسط وفوقه عدد من الأبراج الصغيرة، قد تكون مداخن أو أنابيب تهوية أو بقايا تحصينات شبيهة بتحصينات القلعة، يبدو المبنى كأنه يحمل ملامح عربية، خاصة في الظلام عندما لا نرى سوى خطوطه الخارجية، فيذكرك ببيوت مدينة طنجة مع الفارق أن لونه قاتم وليس ناصع البياض مثل بيوتها.

إذن، كانت مكاتب الموظفين الذين قرأت عنهم في الملفات تقع هنا في الدور الأول من هذا البيت ذي الشكل المكعب الذي طلي آنذاك باللون الأحمر القاتم: مكتب "ينتش"، رئيس محطة القطار، ومكتب "كروزه"، مساعد مدير محطات سكك حديد الرايخ، بالإضافة إلى مكاتب زملائهما، ولا ننسى أيضًا تلك الحجرة في الركن التي أعدت من أجل مكاتب الموظفين المستقدمين من مدينة ماجديبورج للمساعدة في المعاينة...كان الموظفون في سكة حديد الرايخ المشغولون دائمًا يقولون "الماجديبورجيون" ويقصدون "هاينتسه" و"ڤاجنر"، الموظفين اللذين استقدما من ماجديبورج للبحث في أسباب الحادث. كان "كروزه" يقول عنهما "المجرمان"... وينعتهما عامل الإشارة "ليبريشت" بأوصاف ساخرة مثل "السمين والرجل الذي يشبه ساق الفاصوليا"، ولا يتوقف حتى ينضب مخزونه من الأوصاف الساخرة.

قبل عشية ليلة الميلاد بيومين؛ درجة الحرارة اثنتا عشر درجة تحت الصفر؛ والساعة 12:53 صباحًا. المدينة والقرى في نوم عميق. لا أثر للقمر ولا للنجوم، والسماء ملبدة، وبعض الثلج. ثم هذه الضربة المعدنية القوية، الحديد فوق الحديد، صرير المقطورات التي تتدافع داخل بعضها بعضًا، تصدع الخشب وانقسامه. كل هذا في نفس الوقت وبعنف حتى أن الأصوات سُمعت في محيط عشرة كيلومترات، سُمعت الأصوات في المدينة، وفي القرى المحيطة وفي المزارع المنعزلة، وفي العزب المجاورة. ينام الناس ثم يقفزون من نومهم فزعًا. ثم السكون من جديد. سكون أعمق عن ذي قبل.

الحادي والعشرون من ديسمبر 1939 كان يوم خميس؛ ومحطة قطار "پوتسدام" في برلين تعج منذ الصباح الباكر بالزحام الكثيف الذي يستمر حتى ساعات متأخرة من الليل. أغارت القوات الألمانية في 1 سبتمبر على بولندا؛ البلد في حالة حرب؛ وهذا يعني أن كل القطارات غير الضرورية لاستمرار الخدمة خصصت للاستخدام العسكري. لابد أن تدور العجلات من أجل تحقيق النصر؛ ولكن يوجد نقص في عدد القطارات. لم تعد القطارات الإضافية المخصصة للعمل في الأسابيع قبل وبعد عيد الميلاد متوفرة، في حين يزداد عدد المسافرين في تلك الأوقات أكثر من أوقات السلم. لا عجب إذن أن تتأخر القطارات في كثير من الأحيان، خاصة وقد ضُغطت مواعيد القطارات وألغيت بعض الرحلات.
يغادر قطاران المحطة في وقت متأخر من المساء، القطار السريع رقم D10 في اتجاه كولونيا، والقطار السريع رقم 180 في اتجاه نوينكيرشن، ويفصل بينهما نصف ساعة. ينطلق القطار رقم D10 في موعده في الساعة 23:15، وينطلق القطار رقم D180 في موعده أيضًا في الساعة 23:45؛ ولكن لن يصل أي منهما إلى محطة الوصول. فبعد 68 دقيقة؛ في أولى ساعات الصباح من يوم 22 ديسمبر 1939 – أي في الساعة 12:53 على وجه التحديد – ستقع عند محطة "جنتهين" على بعد 90 كيلومترًا غربًا، أكبر كارثة في تاريخ السكة الحديد الألمانية حتى ذلك الوقت. اختفت تلك الكارثة من الذاكرة تقريبًا تمامًا، أو اختفت لفترة من الوقت على الأقل.
اصطدم القطار رقم D180 بكل سرعته بالقطار رقم D 10. مات 196 إنسان في مكان الحادث أو في الأيام التي تلت الحادث. وأصيب المئات.

عندما كونت صورة لما حدث آنذاك، رأيت أمامي البيت الذي تعيش فيه الفتاة التي كانت تدعى في ذلك الوقت "ليزا"، مع أمها، وافترضتُ أنها استيقظت أيضًا بسبب الأصوات.
كانت غرفتها في الجزء الخلفي من البيت بجوار الفناء المخصص للدواجن والحدائق الملحقة به. لابد وأنها استيقظت فزعًا وذهبت إلى النافذة بدون أن تضيء النور.
كان زجاج النافذة غالبًا مغطى بالثلج كما يحدث في كل شتاء أتذكره هناك؛ حقل من زهور الجليد. وضعت فمها على الزجاج ونفخت فيه ثم سحبت كم القميص على قبضتها ومسحت به الزجاج...لكن لا شيء، فقط الخطوط التي تحدد معالم الكنيسة القابعة ببرجها العريض خلف

الحدائق كأنها دجاجة أم تجلس بين الأشجار؛ فتوجهت إلى حجرة المعيشة وهي تتلمس طريقها حافية القدمين في الظلام عبر الدرج ذي البلاط البارد. أزاحت الستارة وفتحت النافذة ثم المصراع الخشبي، لكن لا شيء هنا أيضًا يمكن أن يفسر سبب الضوضاء، رأت فقط كومة من الخشب على شكل كوخ الإسكيمو كان أبوها قد خزنها في الصيف (أبوها الذي أصبح يعاني من مرض شديد)، وتبدو خلف الكوخ، على الجانب الآخر من المرج، حافة غابة الصنوبر التي تخترقها الحقول؛ تبدو الحافة مثل خط سميك رسم بقلم اسود.

الغريب أني أراها دائمًا وحدها، لا أرى معها أبدًا أمها التي تنام في الغرفة الصغيرة المجاورة، كانت الغرفة ضيقة للغاية لدرجة أنها لم تتسع لسريري الزوجين جنبًا إلى جنب فوضعا ملاصقين للحائط، كل سرير خلف الآخر (كأنهما مقطورة تجر الأخرى).

لابد وأن أمها استيقظت أيضًا ولكنها ظلت راقدة في فراشها. لماذا؟ هل لأنها لم تكن ترى؟ أو أن هذا حدث فيما بعد؟ أي بعد الحرب عندما كانت تعتني بي في أثناء وجود "ليزا" في العمل. كانت في ذلك الوقت قادرة فقط على التمييز بين النور والظلام، ولم تكن ترفع نظرها عندما تسمع صوتًا غريبًا، لكنها كانت تنظر إلى أسفل، إلى داخلها، كأنما تستمع إلى نفسها لتجد هناك التفسير لما سمعته.

أغلقت "ليزا" النافذة، ولم تعد تسمع سوى دقات ساعة الحائط التي أصبحت بالنسبة لي فيما بعد الصوت السائد في هذه الغرفة، بالإضافة إلى صوت عزف "ليزا" على الكمان؛ عادت "ليزا" إلى الفراش ولم تعرف ما حدث إلا في الصباح وهي في طريقها إلى العمل.

أفكر الآن أن حامل النوتة الموسيقية كان في تلك الليلة أيضًا إلى جانب النافذة وليس في غرفة المعيشة حيث اتخذ مكانه فيما بعد عندما أصبحنا نعيش وحدنا. كان حامل النوتة الموسيقية في تلك الليلة في الغرفة بجوار فناء الدواجن، والتي أصبحت فيما بعد غرفتي، بعدما انتقلت "ليزا" بعد وفاة أمها إلى الغرفة الضيقة في الجزء الأمامي من المنزل، والتي كانت تستخدم كحجرة لنوم الأبوين.

أما أنا، فلم أسمع عن تلك الحادثة إلا في منتصف التسعينات.

كنت قد كتبتُ مقالًا عن الطريق الرومانسي[1] نُشر في مجلة مخصصة للرحلات والسفر (لم تلعب فيه المدينة إلا دورًا ثانويًا بالضرورة). تلقيتُ بعد ذلك خطابًا بالبريد أرسله شخص يدعى الأستاذ "ڤايدنكوپف"، ولم أكن أعرفه. كتب لي أنه أعجب بالمقال الذي كتبته، وأنه فهم من المعلومات الشخصية الخاصة بي أن أصولي تعود إلى مدينة "جنتهين"، ولهذا فقد سمح لنفسه بأن ينبهني إلى واقعة أصبحت الآن في طي النسيان: حادث القطار الكبير في عام 1939.

بسطتُ أمامي الأوراق التي كانت بداخل المظروف فرأيتُ مقالًا نُشر في بداية الثمانينات في مجلة "أيزنبانفرويند"، كان المقال مكونًا من ثمانية أوراق اقترب لونها من الاصفرار، لم تكن أوراقًا مصورة، بل كان المقال الأصلي وقد انتزع من المجلة. عكست الصور المطبوعة في المقال شكل الدمار. اصطدم القطار الثاني بالقطار الأول بقوة شديدة لدرجة أن عربات القطار

---

[1] الطريق الرومانسي Romantische Straße أو Straße der Romantik مصطلح صاغته شركات السياحة في الخمسينات لوصف الطريق السريع الممتد في جنوب ألمانيا بين مدينتي "فورتسبورج" و"فوسن" في ولاية بافاريا. ويوجد على جانبي الطريق معالم سياحية هامة مثل قصر أمير فورتسبورج ونويشفانشتاين وهوهنشفانجاو، بالإضافة إلى عدد من القلاع والقصور المحاطة بطبيعة ساحرة.

تكوم بعضها فوق بعض، وأظهرت الصور إحدى العربات وقد ارتفعت في الهواء بينما سقطت عربة أخرى على الأرض، وبدا وكأنها ستغوص داخلها.
ذكر "ڤايدنكوپف" في نهاية خطابه أن أصوله تعود أيضًا إلى "جنتهين" وأنه كان في الثلاثينيات تلميذًا في القسم العلمي في المدرسة الثانوية التي تقع في "شارع المدارس الكبير"، وكتب أنه تذكر عندما قرأ اسمي، فتاة كانت تدرس معه في نفس المدرسة ولكنها أصغر منه بسنة أو اثنتين، كان اسمها "ليزا فاندرزيه"، وقد تركت المدرسة بعد إتمام المدرسة الإعدادية وبدأت تدريبًا مهنيًا في أحد المتاجر.
«هل لي أن أسأل إذا كنت أحد أقاربها؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل تعرف ما الذي حدث لهذه الفتاة؟»
شكرته لإرساله المقال وأخبرته أن "ليزا فاندرزيه" هي أمي وأنها تعيش في برلين.
تلقيتُ إثر ذلك خطابًا ثانيًا يبعث لي فيه بتحياته ويقول أنه يتذكر أنها كانت فتاة طويلة القامة وأنه كان يصادفها دائمًا وهي تحمل صندوق الكمان.
تبادلنا بعد ذلك بضعة خطابات. وفي كل مرة كان يرسل مع خطابه شيئًا آخر: صورة للمدرسة الثانوية تعود إلى عام 1934؛ غطاء زجاجة بيرة قديمة وعليه كلمة "بيرة جنتهينر"؛ نسخة من مخطوط عن تاريخ المدينة كتبه بنفسه وزُين غلافه بشعار المدينة الذي يصور مريم العذراء وهي تطفو حافية القدمين في الهواء، والطفل على ذراعها.
كان قد هاجر إلى الغرب في الخمسينيات (هذا ما عرفته فيما بعد)، وأصبح بسبب اشتياقه إلى مدينة القناة "جنتهين"، باحثًا متخصصًا في بيئة الوطن وجامعًا للتذكارات. باحث متخصص في بيئة الوطن ولكن بدون وطن؛ كان يمكن أن يصبح في ظروف أخرى جامعًا للطوابع أو لنسخ المطبوعات الأولى، ولكن تركز شغفه بالبحث والجمع على محل ميلاده.
كتب يقول: «هذا من أرشيفي الخاص، إن ما أرسله إليك مرفقًا في خطابي هو جزء من أرشيفي الخاص.»
لاحظتُ أني لم أسعد بما أرسله وإنما شعرتُ بشيء داخلي ينغلق. هل يمكن أن يكون قد رأى في روحًا قريبة منه؟ رأى شخصًا يستطيع أن يلزمه بهداياه ويجعله خليفة له فيما يفعله ؟ كنت ما زلت أعيش في ذلك الوقت في إيطاليا، ولم تكن لدي أدنى رغبة في أن أسمح لأحد بأن يدفعني إلى لعب دور معين، خاصة دور الباحث في بيئة الوطن. هكذا أصبحت خطاباتي إليه أقصر وأقصر.
كتبت له ردًا على خطابه: «شكرًا جزيلًا.» فقط «شكرًا جزيلًا.»
توقفت المراسلات بيننا في النهاية. نسيته مع الوقت، وإذا تذكرته أحيانًا، كان يخطر على بالي كشخص مات منذ زمن. ثم وصل منه خطاب في أحد الأيام.
«أرسل لك اليوم صورتين التقطتا منذ أسبوعين في "زالفيلد".»
تظهر في الصورة الأولى أرصفة قطار عديدة متشابكة في فوضى، وأرض مخصصة للسكك الحديدية أوقفت فيها القاطرات البخارية القديمة. أما الصورة الثانية فكانت صورته، رجل متقدم في السن (لابد وأنه كان في التسعين من عمره)، يمسك بعصا ويشير بكل علامات الانتصار إلى أحد الأرقام.
«إنها !01531 ! هل تتذكر؟ إن القاطرة التي تعرضت للحادث كان رقم تشغيلها هو 01158. لقد أُصلحت بعد الحادث وعرفت أنها دخلت الخدمة من جديد وظلت في التشغيل حتى

السبعينيات. أعطوها بعد الانتهاء من الإصلاح الشامل في عام 1964 رقمًا جديدًا هو 01531؛ ها أنا أقف أمام القاطرة التي انتزعتني من نومي في ليلة الحادث.»

ثم كتب في نهاية الخطاب ملاحظة عرفت الآن أنه فكر فيها جيدًا قبل كتابتها.

«لقد أعيد تشغيل القاطرة فيما بعد بين ماجديبورج وبوتسدام، بحيث لا يمكن أن نستبعد أنها هي نفس القاطرة التي كانت تجر القطار الذي غادر بكما أنت والسيدة والدتك "جنتهين".»

لا، لم يكن مستبعدًا، ولكنه أمر غير معقول إلى حد كبير. ولكن أليست الصدف دائمًا غير معقولة؟ أخرجتُ المقال مرة أخرى وقرأتُ بالفعل:

« أخذت القاطرة رقم 01158 رقمًا جديدًا هو:01531.»

هكذا بدأ الأمر. لقد بدأ مع ملحوظة "ڤايدنكوپف" عن القاطرة؛ أو هل بدأ الأمر في خلال الثواني الأربع التي ذكرها المقال؟

«لو كان عامل الإشارة قد أبكر أربع ثوان فقط وهو يعطي إشارته، لم يكن الحادث قد وقع.»

وهذا التساؤل: ماذا لو؟

كتبتُ في المساء خطابين؛ أحدهما موجه إلى "ڤايدكوپف" لأشكره على ما أشار إليه في خطابه. أما الخطاب الآخر فكان موجهًا إلى الأرشيف الوطني لولاية "ساكسونيا أنهالت". جاء الرد بعد أسبوع واحد فقط. أبلغني رجل يدعى "دكتور هيرتر" أن الأرشيف الوطني به ملفان يمكنني الاطلاع عليهما، يوجد أحد الملفات في الأرشيف الخاص بالجرائم في ماجديبورج، والآخر في الأرشيف الخاص بسكة حديد الرايخ.

«لكن تحليل المعلومات في هذين الملفين هو مسئوليتك.»

أجل، كان الأمر يدور حول ***ماذا لو.*** كانت الأمور تسير على هذا النحو منذ قليل، ثم تغيرت بعد ذلك مباشرة تمامًا. كان كل شيء على ما يرام منذ قليل، وغرق كل شيء في الفوضى في اللحظة التالية. ما وقع بين "*منذ قليل واللحظة التالية*" كان حركة يد خاطئة، كان ضآلة تلك الثواني الأربع.

أو كان خطابًا: «لماذا أنتِ هنا ولستِ هناك يا "ليزا"؟»

«هذا غير ممكن.» هذا ما كتبته "ليزا" بالقلم الرصاص على هامش الورقة. كان الخطاب محفوظًا داخل كتاب "كرويتسر" عن دروس عزف الفيولين والذي ظل، بالإضافة إلى كتاب "بريتوس Beritos عن "دروس عزف الفيولين"، أهم كتاب في نظرها لفترة طويلة. كان ورق الكتاب رقيقًا للغاية لدرجة أن أوراقه التصقت ببعضها بعضًا، وكانت تنقلب مع بضعها بعضًا عند قلب الصفحة. لهذا لم أنتبه إلى هذا الكتاب عندما بدأتُ كتابة ملخص المقال وأخذت أخرج النوتات الموسيقية من الصندوق وأضعها جنبًا إلى جنب. كان خطها دقيقًا للغاية، فاستغرق مني الأمر فترة من الوقت حتى تمكنت من قراءته. لكنه كان خطها، لا شك في ذلك.

كتبت على هامش الورقة: «هذا غير ممكن. غير ممكن يا حبيبي.»

لكنه أصبح بعد ذلك ممكنًا.

كان المقال المنشور في مجلة "ايزنبانفرويند" بقلم أستاذ يدعى "بوته" من مدينة "باد زاروق" على بحيرة "شارموتسلزيه" وركز المقال على الدور الذي لعبه "إريش ڤرنيكه" سائق القطار

رقم D 180، في الحادث. قيل إنه تجاهل في أثناء قيادته القطار العديد من الإشارات، وحكم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات في المحاكمة التي جرت في صيف 1940 في ماجديبورج. رأى "بوته" أن الحكم كان ظالمًا، وأنه كان حكمًا فاشيًا تعسفيًا.

وصف "بوته" سائق القطار الذي كان في وقت وقوع الحادث في الواحدة والخمسين من عمره، بأنه رجل يتحمل المسئولية ولم يقم بأي خطأ في خلال مسيرته المهنية الطويلة، كما لم يكن مدينًا لأحد بأي مبلغ حتى لو كان ضئيلًا، بالإضافة إلى أنه لم يكن عضوًا في الحزب النازي ولا في أي فرع من فروعه، وهذا ما كان أيضًا في صالحه.

وتساءل "بوته" هل يعقل أن يخاطر شخص مثله بحياته وحياة البشر الذين اؤتمن عليهم بمثل هذا الاستهتار؟ لا، مستحيل. لو كان قد تجاهل الإشارات، فلابد وأن ثمة سبب دفعه لذلك، سبب لا علاقة له بشخصه.

إن الكاتب، إذا لم أخطئ فهمه، يرى أن السبب كان الطقس؛ كان توزيع تيارات الهواء الدافئة والباردة: هذا هو العامل الحاسم. كتب أنه حدث انقلاب في الطقس حال دون أن ترتفع غازات الدخان من مدخنة القاطرة إلى أعلى، فدخلت الغازات عبر الصفائح العاكسة للدخان إلى كابينة القيادة المفتوحة وأدت إلى تسمم العاملين في القطار بثاني أوكسيد الكربون.

كان السائق "ڤيرنيكه" ومساعده "كرولمان" مخدرين إن لم يكونا فاقدي الوعي تمامًا عندما تجاهلا الإشارة، لهذا لم يعرفا أي شيء عما حدث. استخلص "بوته" من ذلك أنه كان يجب أن يُحكم ببراءة "ڤيرنيكه" و "كرولمان" المتهم بدوره بدلًا من إدانتهما.

هل يعني هذا أن القطار كان منطلقًا في وسط الليل بسرعة بدون سائق؟ تلك صورة تبدو مستهلكة، ولكنه كابوس إذا وقع في الحقيقة، وكان سيجعل الركاب يشعرون بالفزع لو كانوا علموا بالخطر المحدق بهم. لكنهم لم يعرفوا أي شيء، كانوا يجلسون في أماكنهم في أمان واضح، يشعرون بالنعاس أو يتصفحون كتابًا أو يتطلعون إلى المناظر الطبيعية في الخارج.